Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

المرأة الجزائرية والمقاومة السلمية للمشروع الاستيطاني الفرنسي

Algerian women and peaceful resistance to the French settlement project in Algeria

زهير بن علي Zahir Benali
جامعة باتنة1 1University of Batna-
مخبر التراث والدراسات الأثرية Heritage and Archaeological Studies Laboratory
benalizahir@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-03-21 تاريخ القبول : 2019-11-25

ملخص:

تروي لنا المصادر التاريخية ما قدّمته المرأة الجزائرية من تضحيات في مقاومة المحتل الفرنسي؛ ومساهمتها الفعّالة في الكفاح الذي خاضه الشعب الجزائري، فقد قوّضت مخططات الاحتلال وأفكار منظّريه الرامية إلى الولوج داخل المجتمع وتفكيكه عن طريق غزو المرأة فكرياً وثقافياً.

سنتناول مظاهر مقاومة المرأة الجزائرية للمحتل الفرنسي، كتعبير عن رفض الاحتلال؛ بامتناعها عن التعامل مع الإدارة الفرنسية في الجزائر، ورفض التداوي لدى الطبيب الأجنبي (الرومي) وارتياد بالمدرسة الفرنسية، وإبائها التجنّس بالجنسية الفرنسية، والتخلّي عن أحوالها الشخصية الإسلامية، وحتى التواصل مع المرأة الأوربية (المستوطنة) أو تقليدها مظهراً وسلوكاً.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال الفرنسي؛ المرأة الجزائرية؛ تحرير المرأة؛ المقاومة الثقافية؛ المقاومة السلمية.

Abstract:

Algerian women in resisting the French occupier, and their active contribution to the struggle waged by the Algerian people, which undermined the designs of the occupation and the ideas aimed at entering and dismantling the society by invading women culturally.

In this paper, we review the manifestations of the Algerian woman's confrontation with the French occupier, as an expression of the rejection of the occupation, by refraining from dealing with the French administration in Algeria, refusing to give medication to the foreign physician and attending the French school, and its fathers naturalized French nationality and abandon Their Islamic personal conditions, even communicating with the European woman or imitating her appearance.

Keywords: French occupation; Algerian women; emancipation of women; cultural resistance; peaceful resistance.

1. مقدمة:

منذ العقود الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، دخلت المرأة الجزائرية (الأهلية) ضمن استراتيجياته التوسّعية والاستيطانية ومخطّطاته الرامية إلى البقاء والسيطرة الشاملة، فكانت المرأة تمثّل بالنسبة للساسة والمفكّرين الفرنسيين؛ مفتاح اختراق المجتمع الجزائري المسلم والوسيلة الأمثل لتفكيكه؛ بغزوه عن طريق البيت، على حدّ وصف موريس فيوليت (Maurice Viollette)[1]، وأصبح ولوج عالم 'الحريم' المحكم الإغلاق بالنّسبة غاية منشودة لمنظّري الاحتلال ومن رافقهم من

مستشرقين وفنّانين وأدباء...، كما أصبحت 'المرأة الجزائرية المسلمة' في صلب مخططات الاستيطان والسيطرة، فوظّف لتحقيق ذلك التنصير بطرقه المختلفة، والغزو الفكري والثقافي.

في مواجهة هذا المشروع الفرنسي الاستيطاني بالجزائر؛ سلكت المرأة الجزائرية كلّ السبل الممكنة والمتاحة لحماية كيانها الأسري المستقلّ عن الأجنبي الغازي، والحفاظ على شخصيتها الجزائرية، والدفاع عن وطنها الجزائر. لقد حملت السلاح إلى جانب الرجل وخاضت معركة الكفاح المسلّح في إطار المقاومة الوطنية وناضلت في صفوف الحركة الوطنية، وانخرطت في الثورة مناضلة ومشاركة في مسار الكفاح التحرّري.

كما كانت للمرأة الجزائرية وسائل أخرى في المقاومة؛ تعبيراً منها عن رفض الوجود الفرنسي ومشروعه التغريبي بالجزائر، تمثّلت في المقاومة أو المواجهة الثقافية؛ وهو ما اصطلحت عليه الدراسات التاريخية و الأنثروبولوجية: 'المقاومة السلمية' أو 'المقاومة السلبية'، والتي شملت مجالات عديدة نذكر منها: الصحة والتطبيب، التعليم والمدرسة، التجنيس والاندماج...وانعكست في ممارسات وسلوكيات سلكتها المرأة الجزائرية ومن يتولّى أمرها؛ برفضها ارتياد المدرسة الفرنسية وهي بنت، والتداوي لدى الطبيب الأجنبي (الرومي)، كما امتنعن عن تقليد الفرنسيات في نمط حياتهنّ مظهراً وسلوكا.

وبناء على ما سبق؛ نتساءل عن طبيعة السياسة الفرنسية في الجزائر المُستعمرة التي اضطرّت المرأة الجزائرية لأن تسلك هذه السلوكيات؟ وعن أشكال المقاومة التي أبدتها المرأة الجزائرية في مواجهة المشروع الاستعماري التغريبي؟ ثم عن مآلات ونتائج الموقف 'السلمي والسلبي' الذي اتّخذته المرأة الجزائرية تجاه المُستعمِر بمقاومة سياسته الجائرة؟

إنّ موضوع 'المقاومة السلمية' من المواضيع التي قد لا تسترعي اهتمام الكثير من الباحثين، فالتركيز عادة يكون على التأريخ للمقاومة المسلّحة والسياسية، لهذا فإنّنا ارتأينا طرح هذا الموضوع لكشف الحقائق التاريخية المتعلّقة به، والمتمثّلة في شكل آخر من المقاومة اتّخذته المرأة وسيلة للوقوف في وجه الغزو الفرنسي، وكان من السبل التي عبّرت من خلالها المرأة المسلمة في الجزائر على تمسّكها بهويتها وثقافتها ودينها، فقاومت بهذا الغزو الثقافي الفرنسي وحاولت الحفاظ على شخصيتها الجزائرية.

ويندرج موضوعنا بحثنا ضمن مواضيع التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر في العهد الاستعماري، كما لا يخلو من بعض الجوانب السياسية؛ لذلك سنوظّف المنهج التاريخي الوصفي لسرد بعض الأحداث ، كما سنستخدم المنهج التحليلي لتجلية الحقائق المتعلّقة به، وفهم جوانب من المقاومة السلمية والسلبية التي أبدتها المرأة الجزائرية تجاه السياسة الفرنسية، وهذا كلّه ضمن السياق التاريخي للموضوع؛ الذي يغطّي فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

2. أهمية دور المرأة الجزائرية في مواجهة الإيديولوجيا الكولونيالية:

عرفت المرأة الجزائرية وضعاً صعباً طيلة عهود الاحتلال الفرنسي بالجزائر، فقد سدّت أمامها كلّ السبل، وكانت تحيى حياة قاسية وتعيش في حالة مزرية جدّا، كما فُرضت عليها عادات وتقاليد بعيدة كلّ البعد عن تعاليم الشرع الإسلامي، وعن الرقيّ والحضارة، وكان المنزل بمثابة السّجن لها، كما فُرض عليها حصار اجتماعي خانق، خشية وقوعها في الخطيئة وجلب العار... ورغم ذلك فقد وقفت المرأة الجزائرية إلى جانب الرجل في مواجهة محنة الاستعمار الفرنسي، وظهرت العديد من الزعيمات والبطلات اللواتي قد تضاهي تضحياتهنّ تضحيات رجال المقاومة المسلّحة[2].

1.2 نساء جزائريات في مقاومة المحتل الفرنسي:

منذ وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر؛ كانت المرأة الجزائرية إلى جانب الرّجل، مُدافعة عن أرضها وعرضها وأهلها، ولعلّ المثال النسوي الأبرز والأشهر في ميدان المقاومة المسلّحة خلال العقود الأولى من الاحتلال الفرنسي؛ المقاوِمة ذائعة الصيت 'لالا فاطمة نسومر' سليلة منطقة القبائل وجبال جرجرة، والتي أذاقت الجيش الفرنسي الويلات، وتفوّقت على أشهر جنرالات فرنسا، وانتصرت في العديد من المعارك إلى جانب المقاوم المجاهد 'بوبغلة'، وكسبت قلوب المقاومين بمنطقة زواوة، وكما أصبحت بالنسبة للجنود الفرنسيين بمثابة القديسة جاندارك (jeanne d'arc) البطلة القومية الفرنسية، بفضل قوّة شخصية 'لالا فاطمة نسومر'، وحسن تدبيرها وتأثيرها في ميدان المقاومة، وحضورها المتميّز في ساحة المعركة، وعلى مسرح الأحداث الجارية آنذاك.

يمكن أن نشير أيضا في فترة بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى والدة المقاوم الرمز؛ مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري، فقد كانت والدته 'السيّدة زهرة' سندًا قويًا له في أوقات الشدّة والعُسرة، وكان يستشيرها في كثير من أمور الجهاد كما ورد في كتاباته، وفي أشعاره التي تغنّى فيها بالأم وبالزّوجة، وعبّر فيها عن شديد تعلّقه بوالدته وحبّه الكبير لها.

لم يخل تاريخ الجزائر المقاومة للاحتلال الفرنسي من نماذج نسوية عديدة؛ قدّمن المثال وكنّ القدوة في مجال التضحية والكفاح في مواجهة أعتى قوة استعمارية حلّت بالجزائر وأفريقيا آنذاك، لا تّسع المجال لذكرهنّ، ولعلّ الجميلات الثلاث والشقيقتان مريم وفضيلة بوعتورة، و الشهيدتان مليكة قايد وحسيبة بن بوعلي... والمجاهدات زهور ونّيسي وزهرة ظريف وجميلة بوحيرد... وغيرهن كثيرات؛ خير مثال على ما قدّمته المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية لقهر المُستعمَر الفرنسي.

2.2 المرأة الجزائرية في صلب المشروع الاستيطاني الفرنسي:

لقد كانت المرأة في صلب الإستراتيجية الفرنسية التغريبية، والهادفة إلى تفكيك أواصر المجتمع الجزائري، والولوج إلى أعماقه وكسر إرادته في المقاومة والتحرّر، وإجباره على الاستسلام والتسليم والرضاء بالواقع (القضاء والقدر).

يمكن أن نقرأ في هذا السياق كلمة أليس أليكس (Alice Alex)[3]، وهي إحدى المعلّمات الفرنسيات اللواتي نشطن في الجزائر منذ بداية الاحتلال في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وعملت على نشر التعليم الفرنسي فيس أوساط الفتيات الجزائريات، وسخّرت كلّ إمكانياتها وجهودها لخدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر. تخاطب هذه المعلّمة المتحمّسة لمشروع الغزو الثقافي والفكري الذي يستهدف المرأة؛ وزيرا فرنسيا حول الموضوع: "...*كما تعلمون السيد الوزير، إنّ أقوى عنصر من حيث التأثير في إفريقيا، وكما عليه الحال في أوربا هو المرأة؛ فإذا تمكّنتم من استقطاب 100.000 من بنات الأهالي وإشباعهن بمبادئ حضارتنا، بحيث يُؤخذن من مختلف فئات المجتمع وأعراق الإيالة، ستصبح هذه الفتيات بحكم الظروف الزوجات المفضلات للرجال ذوي المكانة المرموقة ضمن الفئة التي ينتمين إليها في المجتمع، ومن ثم يضمنّ إلى الأبد خضوع البلد، ويكنّ بالتالي الرهينة المتعذّر استردادها (...) ويتطلب الأمر لتحقيق هذه الغاية الباهرة 200.000 فرنك وليس أكثر*"[4].

ويكتب في السياق ذاته؛ المناضل وصديق الثورة الجزائرية فرانتز فانون (Frantz fanon)[5]: " ...*إنّ تحوّل المرأة وكسبها إلى جانب القيم الأجنبية وانتزاعها من نظامها الخاص هو الحصول في آن واحد على سلطة حقيقية على الرجل وامتلاك وسائل العملية، لمتابعة تفتيت الثقافة الجزائرية*"[6].

ولئن كان مشروع السيّدة 'أليكس' لم يجد الدعم والرعاية اللازمين من طرف الحكومة الفرنسية؛ لانشغالها بعمليات الغزو العسكري والتوسّع باستخدام القوّة والبطش والتقتيل؛ وللعقلية العسكرية السائدة لدى أصحاب القرار في فرنسا حينذاك، فإنّ دور المرأة وأهميّته في اختراق المجتمع الجزائري، وإخضاعه بدأ يتجلّى شيئاً فشيئاً، واتّضح للفرنسيين ضرورة استقطاب البنات المسلمات، لتكوين أسر جزائرية موالية للاحتلال، تخدم مصالح، وتنفّذ أفكار منظّريه في الجزائر؛ لذلك كانت المرأة المسلمة في الجزائر مدفوعة إلى انتهاج سبل جديدة وطرق مُبتكرة في التصدّي للمخططات الفرنسية، والدفاع عن كيانها وأبنائها، والتمسّك بشخصيتها المستقلّة كما سنرى.

3. صور من المقاومة الثقافية 'السلمية والسلبية' للاستعمار:

تعدّدت وتنوّعت صور وأشكال مواجهة المرأة الجزائرية للمُحتل الفرنسي، فقد عبّرت هذه الأخيرة بكلّ الوسائل المتاحة عن رفضها لسياسة فرنسا التمييزية العنصرية؛ الجائرة الظالمة في حقّ الجزائريين، وقد فرض الواقع الاستعماري على المرأة الجزائرية انتهاج مثل هكذا سبل، فموقف المرأة الجزائرية كان ردّ فعل طبيعي على ممارسات المحتلّ، وقد حاولت بذلك الحفاظ على كيانها المستقّل، والذود عن شخصيتها الجزائرية العربية الإسلامية بأبعادها و مرتكزاتها اللغوية والدينية والثقافية، فتجسّد ذلك في عدّة مظاهر للمقاومة الثقافية، نقتصر على ذكر بعضها أو أهمّها؛ وفق ما أتيح لنا من معلومات تاريخية وكتابات تتعلّق بهذا الموضوع.

1.3 رفض التعليم الرسمي وارتياد المدرسة الفرنسية:

نحن نعلم أنّ السياسة الاستعمارية الفرنسية في مجال التعليم توجّهت إلى محاربة التعليم العربي القرآني الذي كان سائدا في ربوع الجزائر مشرقاً ومغرباً قبل الاحتلال[7]، وهذا الهدف وأد اللغة العربية لغة عموم المسلمين الجزائريين، وإحلال اللغة

والثقافة الفرنسيتين محلّ لغة الجزائريين وثقافتهم، فصودرت الأوقاف الإسلامية التي تموّل المؤسسات التعليمية والدينية كالزوايا والمساجد والكتاتيب، وغُلّقت المدارس العربية الإسلامية وجفّف المحتلّ منابع تمويلها، وأقصى المعلّمين وأبعد العائلات الكبيرة التي تقوم على شؤون التعليم وترعاه، وحارب الدراسات الإسلامية في الجزائر ومنع تلك المؤلفات القادمة من المشرق، مقابل تشجيعه ودعمه للدراسات 'العربية' المُغرضة التي قام بها المستشرقون الأوربيون، والتي كانت تسعى إلى رسم صورة شاملة عن المجتمع المحلي (الأهلي)، وهي بذلك تخدم المشروع الاستعماري وتساعده في فهم تركيبة المجتمع الجزائري ومكوّناته وطرق تفكيره وأساليب معيشته، بغية التوغّل بداخله لتفتيته وجعل الفرد الجزائري أداة طيّعة تخدم الاحتلال ومشاريعه الاستيطانية في الجزائر.

ولم تكن المرأة الجزائرية تحت نير الاحتلال الفرنسي، بمعزل عن الحالة السيّئة والوضع البائس الذي كان يعيشه المجتمع الجزائري ككلّ. فالفرنسيون بعد أن صادروا الأرض واستباحوا العرض، توجّهوا إلى كسر إرادة المقاومة لدى الجزائري، فاستهدفوا أسرته وكيانه الاجتماعي والثقافي، وركّزوا على المرأة الجزائرية المسلمة، فلم يقتلوها جسدًا خلال عمليات الإبادة التي رافقت عمليات التوسّع فحسب؛ بل قتلوها روحًا بقتل زوجها أو ابنها أو أحد أقاربها، وبتسليط الفقر والمرض والجهل عليها، ومحاولة فرض عقليتهم وثقافتهم.

في مواجهة هذه السياسة الاستعمارية؛ كان ردّ الفعل الطبيعي والتلقائي للفرد والمجتمع الجزائري؛ عقب فشل المقاومة المسلّحة وفي ظلّ غياب البدائل السياسة الأخرى وتغييب المستعمِر لطرق التعبير وإبداء الرأي، تبنّيه لسياسة دفاعية جديدة تتمثّل في مقاومة ومواجهة المحتلّ الفرنسي 'سلميا وسلبيا' وهو ما عبّرت عنه الباحثة الأنثروبولوجية 'إيفون تيران' بـ 'المواجهة الثقافية'[8]، وقد كانت المرأة جزء من هذه المواجهة الاجتماعية والثقافية التي خاضها الجزائريون.

من الواضح أنّ المرأة الجزائرية كانت مُرغمة على انتهاج مثل هذا السلوك وهذا لسببين جوهريين:

أولهما: الهجمة الاستعمارية الشرسة التي تعرّضت لها البنت والمرأة الجزائرية والتي استهدفت شخصيتها عاداتها وتقاليدها وحتى زيّها و لباسها، والتي جعلتها تشعر بالخطر الداهم الذي بات يهدّد كيانها .

ثانيهما: وجود الفتاة الجزائرية في بيئة مجتمعية مُغلقة؛ السلطة العليا فيها للذّكر (مجتمع ذكوري)، وهو من يقرّر مسارها الحياتي ومصيرها منذ الولادة إلى النشأة والزواج وحتى الوفاة، وهذا ما جعل منها أداة لتنفيذ أوامر الرّجل دون مناقشة أو إبداء للرأي المُخالف.

بسبب هذا وذاك؛ يمكننا الجزم أنّ البنت الجزائرية لم تكن مخيّرة في رفضها مزاولة التعليم الفرنسي، وارتياد المدرسة الفرنسية، فلا الحكومة الاستعمارية وفّرت ظروف التمدرس للجزائريين والجزائريات[9]، ولا عموم الجزائريين كانوا راضين بذهاب بناتهنّ إلى المؤسسة التعليمية الفرنسية، ومواجهة المعلّم الفرنسي (الرومي) وجهاً لوجه، والاختلاط بالتلاميذ الفرنسيين أبناء المعمّرين من الجنسين، فلا الممارسات اليومية لدى الجزائري، ولا الأخلاق والعادات الاجتماعية كانت تسمح بذلك، لقد كان القبول بمثل هذا الأمر يمثّل تسليما بالواقع الاستعماري وقبول الاندماج والتجنيس، الذي يحمل معنى واحدا آنذاك وهو: الردّة عن الدين الإسلامي[10] و التماهي مع المشروع التنصيري في الجزائر الذي قاده الكاردينال لافيجري وجمعيات الآباء والأخوات البيض واستهدف بالدرجة الأولى النساء والأطفال باعتبارهم الحلقة الأضعف في التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، وركّز على أعالي منطقة زواوة (القبائل) حيث ينتشر الفقر والبؤس والحرمان[11].

لقد كان الخطر كلّه بالنّسبة للجزائري هو الاستماع إلى توجيهات الأجنبي؛ مدنيا كان أو عسكري، والتقيّد بتعليماته أو العمل بها مهما كانت طبيعتها، فما بالك إذا تعلّق الأمر بالبنت والمرأة التي هي آخر الحصون للدّفاع عن الشرف والهوية. فقد كان بالإمكان أن يستغني الجزائري عن لقمة عيشه وعن أرضه وممتلكاته لصالح المعمّر الأوربي الذي اغتصبها منه بالقوّة؛ لكن كان يهلك دون شرفه الذي تمثّله المرأة ويقدّم روحه في سبيل الحفاظ على كرامته.

تقدّم لنا الباحثة الأنثروبولوجية 'إيفون تيران' صورا عن الرفض الذي واجه به الجزائريون محاولة الإدارة الفرنسية توريط الجزائريات في سلك التعليم الاستعماري، وكذلك عن حالة التردّد لدى الإدارة الفرنسية في إقرار تعليم جاد للجزائريات، لاسيما إذا علمنا الحملة الشرسة التي قادها المعمّرون ضد تعليم

الجزائريين، واعتبروا ذلك بمثابة خطر سهدّد المشروع الفرنسي في الجزائر؛ فكتبت: " *لقد وقع اتفاق بالإجماع بخصوص فائدة المدارس العربية-الفرنسية المخصصة للمدن الأكثر أهمية، واقترح المستشارون إنشاء مدارس عربية-فرنسية للإناث، وهو ما تجسّد بصدور مرسومين الأول بتاريخ 24 ديسمبر 1849م، والثاني في 24 جانفي 1850م الخاصين بالمدارس العربية-الفرنسية، وقد نصا على فتح مدارس للإناث إلى جانب مدارس الذكور، لكن دون امتلاك الجرأة على ذكر أسماء أخرى غير الجزائر (مدينة الجزائر العاصمة)...*". وكتب الضابط لاباسي (Lapasset) خلال العام نفسه: "في حالة ما إذا أردنا الإعداد لتردّي شامل، فليس هناك وسيلة أمثل من إقرار تعليم الفتيات، ولاحقا حين نكون قد أعدنا للمرأة حقوقها التي منحتها إياها الديانات، والتي هضمها لها الرجال المستبدون، يمكننا أن نفكّر في تحسين ذكائها (...)، أما بالنسبة للفتيات، فإنّ الأشغال اليدوية كالخياطة من شأنها استكمال تكوينهن"[12].

2.3 الامتناع عن التداوي لدى الطبيب الأجنبي (الرومي):

من صور رفض الاحتلال الفرنسي من قبل الجزائريين؛ وكمظهر من مظاهر التعبير عن الخوف من الآخر المغتصب، يذكر المؤرخون أنّ عموم الجزائريين كانوا يرفضون التعاطي مع الطب الكولونيالي والتطبّب في عيادات ومستشفيات المستعمِر الفرنسي، هذا رغم حالة البؤس الشديد وعديد الأمراض الفتّاكة التي ألمّت بهم. فالجزائري كان أمام خيارين لا ثالث لهما: إما اللجوء إلى الطبّ الشعبي البديل أو الموت في صمت.

فبعد الذي شاهده وعايشه الجزائريون من اضطهاد وقمع وتقتيل على يد الجنود الفرنسيين خلال عمليات الغزو والتوسّع، انعدمت الثقة بين الطرفين، وصار الطبّ مثله مثل القطاعات الأخرى جزء من النّظام الاستعماري التعسفي، وفعلا فقد استغلّ الفرنسيون الخدمات الطبيّة لمحاولة تبرير الاحتلال، وإعطاء شرعية لوجودهم من خلال أعماله 'الخيرية والإنسانية'، "ذلك أنّ الاستعمار بعد ارتكازه على الاحتلال العسكري والجهاز البوليسي، سوف يجد تبرير وجوده وشرعية بقائه في أعماله"[13].

كانت المرأة الجزائرية تخشى على أبنائها من الطبيب الأوربي (الرومي)، وكانت ترى أمراض 'الجدري'، 'البوحمرون'، 'التيفوئيد' و 'الحصبة' ... وغيرها كثير من أمراض الفقر والحرمان من كلّ أشكال الرعاية الصحية؛ فكانت هذه الأمراض والآفات تأخذ فلذات كبدها من بين يديها، ومع ذلك تمتنع عن زيارة الطبيب الأوربي أو دخول المستشفى الفرنسي. فقد شاعت أفكار الرفض في أوساط المجتمع الجزائري عبارات على غرار: "*لم يطلب منكم أحد منا شيئا منكم، فمن ذا الذي دعاكم؟ خذوا مستشفياتكم وتجهيزاتكم في المرافئ وعودوا إلى بلادكم*"[14]، هو الكلام المتداول و الذي يطغى على النقاشات اليومية لعموم الجزائريين.

لقد عزى الباحثون الاجتماعيون والنفسانيون حالة الرفض هذه والخوف من الآخر؛ إلى الهوة السحيقة التي كانت تفصل المجتمعين الجزائري (الأهلي) والمجتمع الأوربي (المعمّرين)، وأيضا إلى حالة من انعدام الثقة لدى الجزائري تجاه نظيره الأجنبي، هذه الوضعية غذّتها -دون ريب- سياسة المحتلّ الفرنسي القمعية الاضطهادية تجاه السكان منذ وطأت أقدامه أرض الجزائر، فضلا عن نظرة الاحتقار التي يواجه بها الأوربي نظيره الجزائري 'الأهلي المتخلّف بالفطرة'، و 'غير القابل للتطوّر والتحضّر'.

وحتى الأطباء الأوربيين الذين حاولوا التقرّب من الأسر الجزائرية، قوبلوا بالرفض والإحجام، لقد كان العويل والخوف ينتاب النسوة الجزائريات كلّما حلّت فرقة طبية بقريتهن أو 'دوّارهن'، وتصف شهادات بعض الأطباء الفرنسيين حالة الرعب والفزع التي كانت تحلّ أينما حلّ الطبيب أو الممرّض الفرنسي.

لقد بلغت درجة القطيعة والتّنافر بين المجتمع الجزائري و الطبيب الأجنبي... ومع مرور الوقت اكتشف الأطباء الفرنسيون حجم الدور الذي تلعبه النساء المسنّات (العجائز) في مجال الطب التقليدي أو العلاج البديل بالأعشاب والعقاقير، التي استعاض بها الجزائريون عن التداوي في مستشفيات المُحتلّ، رغم قناعتهم بمعرفة الفرنسيين للأسرار الطبيّة، وحاجتهم الماسّة في كثير من الأحيان للعلاج، إلاّ أنّ الثقة كانت مفقودة بين الطرفين، لقد ربط عامة الجزائريين بين عناصر ثلاثة: الاستعمار والدّين والطبّ، ولم يكن من السّهل لديهم الفصل بين الطبّ وغيره كظاهرة من ظواهر الاستعمار[15].

4. رفض المرأة الجزائرية تقليد الأوربية مظهراً وسلوكاً:

تتجلّى مظاهر هذا الرفض في احتفاظ المرأة الجزائرية (عربية وأمازيغية) بعاداتها الحياتية وتقاليدها اليومية - مع ما اعترى هذه العادات من مظاهر سلبيات-، فقد حافظت الجزائرية على لباسها التقليدي، سواء في المناطق الحضرية أو في المناطق الريفية وفي منطقة زواوة (القبائل) تحديدا، والشأن نفسه بالنسبة للمرأة الأوراسية (الشاوية) التي حافظت على كيانها المستقلّ عن المجتمع الفرنسي، وتمسّكت بثقافتها المحلية في اللباس والتزّين والمأكل والتنقّل...[16]، بمعزل عن الثقافة الغربية التي عمل الاحتلال على ترويجها ونشرها بين أوساط الجزائريين.

تفصح لنا العديد من الكتابات الأدبية والتاريخية لكتّاب وكاتبات أوربيين وأوربيات في أعمالهم عن المرأة الجزائرية[17]؛ عن ذكريات ومشاهدات تتعلّق بـ'مجتمع الحريم' المجتمع الجزائري ووضع المرأة فيه، وكيف كانت المرأة الجزائرية تواجه بالرّفض الشديد؛ تقليد الأوربية في زيّها وعاداتها وفي مأكلها وممارساتها اليومية، فإذا كان اختلاط الرّجل الأجنبي بالنساء الجزائريات يعتبر من المستحيلات وضربا من الخيال؛ فإن اقتراب المرأة الأوربية من نظيرتها الجزائرية كان أمرا محفوفا بالحذر والمخاطر بالنسبة للفتاة الجزائرية، وباستثناء قلّة قليلة جدا من الجزائريات اللواتي رضين بمخالطة الأوربيات والتفاعل معهنّ؛ فالغالبية الساحقة من بنات الجزائر فضّلن الانعزال دفعا للشّبهة، وحفاظا على السمعة والشرف والارتباط الوثيق بأسرهنّ وبيئتهنّ المحلية وثقافتهنّ العربية الإسلامية، فأصابع الاتّهام كانت توجّه مباشرة للأسر التي تسمح للفتاة بالخروج وارتياد بيت المستوطنة الأوربية خادمة أو متعلّمة.

5. نتائج و مآلات مقاومة المرأة الجزائرية للمحتلّ الفرنسي ثقافيا:

كانت حيرة وخيبة الفرنسيين من هذا الشكل من المقاومة أكبر من غيرهم، فقد أشارت كتاباتهم على تنوّعها (سياسية، اجتماعية تاريخية، أدبية روائية...) إلى حالة الصدّ والمقاومة التي أبدتها المرأة والمواجهة التي خاضتها هي ومن ورائها المجتمع الجزائري ضد كل محاولات الدمج التي قادها المستعمرون أفرادا ومؤسسات.

المؤكّد لدينا أنّ المرأة الجزائرية هي من دفعت الثمن الباهظ لموقفها هذا؛ فقد كانت تكال لها التهم بالانغلاق والتخلّف من طرف الفرنسيين 'دعاة الحضارة والتمدّن'، والثابت تاريخيا أنّ مآل المرأة المسلمة في ظلّ السياسات الاستعمارية الجائرة كان الفقر والحرمان والجهل والجوع، فالإحصائيات المتوفّرة تشير إلى ارتفاع نسب الأمية بين أوساط النساء في الجزائر المستعمَرة على مستويات قياسية، فإذا كان 2% من الذكور الجزائريين فقط كانوا يحضون بفرصة ارتياد المدرسة؛ فإنّ هذه النسبة لم تتجاوز 0,5 % عند الإناث[18].

وهكذا صارت المرأة الجزائرية ضحية للجهل والأمية، وتعيش حالة من الانغلاق على الذات محرومة من أبسط حقوقها المادية والمعنوية؛ بعد أن زادتها عادات وتقاليد المجتمع رهقاً، فتسلّط عليها العدوّ الفرنسي بسياسته الظالمة القمعية العنصرية، مثلما سلّط عليها المجتمع المحلي أفكاره الرجعية البائدة، البعيدة كلّ البعد عن أحكام الشريعة الإسلامية التي مكّنت للمرأة ومنحتها كل حقوقها وحافظت على شخصيتها الاعتبارية المستقلّة.

ومن المآلات الاجتماعية الصعبة التي انتهت إليها الفتاة الجزائرية؛ بسبب تمنّعها ورفضها للثقافة الأوربية، نجد إعراض الشباب الجزائريين المتعلّمين في المدرسة الفرنسية (النخبة المفرنسة) عن الزواج من فتيات جزائريات وتفضيلهم الأوربيات، وقد شاعت ظاهرة الزواج المختلط بين شباب جزائري ونساء أوربيات؛ لا سيما في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي. "فالمرأة التي تبقى معتبرة قاصرة إلى ما لا نهاية عليها أن تجد لنفسها وصيّاً بأسرع وقت ممكن وترتعد فرائص الأب خوفاً من أن يموت ويخلّف ابنته وراءه بلا سند وغير قادرة إذن على البقاء"[19].

صارت الفتاة الجزائرية بين المطرقة السندان، فهي منبوذة اجتماعيا مرفوضة أسريا إن تماهت مع الثقافة الأوربية وركبت موجة التنصير والتغريب، وهي من جهة ثانية محرومة من حقوقها الطبيعية في الحياة؛ مُتّهمة من طرف الجميع، خاصة دعاة التفتّح والتحضير من الأوربيين ومن النخب الجزائرية المثقّفة ثقافة فرنسية، إذا ما واجهت وقاومت وأجبرت على البقاء في ظلّ حالة الجهل والأمية والتخلّف.

لقد وجدت المرأة الجزائرية نفسها عشية اندلاع الثورة التحريرية في نوفمبر 1954م؛ أسيرة جهلها، "هكذا نرى إذن بأنّ الفتاة الجزائرية غير المتعلّمة، المُحجّبة، المعطّلة كالجزائر بأكملها، بفعل السيطرة الاستعمارية، تبدو غير مُهيّأة للقيام بأعباء مهمّات

ثورية..."[20]، مع ذلك كسرت الشابات الجزائريات كلّ تلك القيود، وتجاوزن العقبات، وطوّرن شخصيّتهن وأساليب عملهنّ، واستطعن تقديم القيمة المضافة للثورة، وأصبحت تضحياتهنّ محلّ إعجاب وصرن قُدوة للأجيال اللاحقة.

6. خاتمة:

إنّ طرحنا لموضوع 'مقاومة المرأة الجزائرية للمحتلّ الفرنسي سلمياً'، جاء من منطلق إدراكنا أنّ مواجهة السياسة الفرنسية في الجزائر المستعمَرة لم تقتصر على المواجهة المباشرة (المسلّحة)؛ بل تعدّدت أشكالها وتنوّعت أساليبها، فكانت المقاومة الثقافية السلمية أو السلبية، ورفض الآخر بوصفه مغتصباً ومضطهداً، شكل من أشكال المقاومة التي لم بدّ منها، ومثّلت تعبير طبيعي وردّ فعل منطقي من المرأة الجزائرية وعموم الشعب الجزائري على وضع الاستعباد وفرض منطق الآخر بالقوّة التي تعرضوا لها، وكانت مظهراً آخر من مظاهر رفض الاستعمار ومشروعه الاستيطاني جملة وتفصيلاً، فضلا عن رفض ممارساته وأعماله القمعية، التي تحوّلت إلى حالة من الخوف والتوجّس من الأجنبي الغاصب حتى ولو كان طبيباً، يُفترض فيه الرحمة والشّفقة.

لقد ادّعى الأوربيين أنّهم جاؤوا لتطوير المجتمع الجزائري، والقضاء على 'التعصّب'، وإخراج المرأة من حالة الانغلاق والتخلّف، فحملت المرأة الأوربية 'المتنوّرة' و 'المتحرّرة' مشعل الحضارة الغربية، وكانت تودّ تسليمه لنظيرتها الجزائرية 'المسلمة'، لكن جوبهت بحالة من الإحجام والرفض من قبل نظيرتها الجزائرية المسلمة، التي آثرت الحفاظ على كيانها الاجتماعي والثقافي المستقل، والاحتفاظ بشخصيتها المتميّزة، فكان الفشل مصيرها؛ وبالتالي فشل المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر برمّته[21].

واللافت هو أنّ المواجهة الثقافية بين الجانبين شملت مجالات كان بالإمكان أن تكون حقولا للتقارب الاجتماعي والتفاعل الثقافي؛ أي منطلقات لتحقيق التعايش السلمي والبنّاء بين الطرفين الجزائري والفرنسي، على غرار التعليم والصحّة والعادات والتقاليد والقيم الإنسانية المشتركة، لكن العكس هو الذي حدث، بفعل النّظرة السلبية التي كان يحملها الأوربي عن العربي، وتحت تأثير السياسة الفرنسية الوحشية في الجزائر؛ مما ولّد حالة من الخوف لدى الجزائريين والجزائريات غذّته الإشاعة، فساد شعور عام بأنّ "الاستعمار هو الموت والإبادة' -على حدّ وصف ألبير كامي- فكان الرفض للطبيب الأجنبي والمعلّم الفرنسي والمرأة الغربية حاملة قيم الحضارة الغربية، هو الحلّ الأمثل والوحيد بالنسبة للجزائريين، لمواجهة الهجمة الشرسة التي تعرّضوا لها.

ومع إقرارنا؛ أنّ المقاومة الثقافية السلبية والسلمية التي أبدتها المرأة الجزائرية في وجه المحتلّ، أو التي دُفعت إليها دفعا مرغمة، بفعل عوامل سبق ذكرها، فإننا لا ننفي أنّ هذا الشكل من المقاومة كان سيفاً ذو حدّين: فمن جهة دفعت المرأة في الجزائر المُستعمرة ثمن 'عنادها' فكان مصيرها الجهل والأمية والتخلّف، ومن جهة ثانية؛ استطاعت بفضل سلوكها هذا تلافي الوقوع فريسة سهلة للامبريالية الاستعمارية الغربية بما تحمله من مزالق التبعية للآخر والمسخ الحضاري، فضلا عن الذلّ والهوان اللذان كانا سيلحقان بها من طرف، وكانت ستعيش حتماً في ظلّ القهر والعبودية، من محتلّ فرنسي لا يتقن لغة سوى لغة الاضطهاد والاستعباد، وجهل المستعمَرين رجالاً و نساءً عبيداً لخدمته.

7. هوامش:

[1]- رجل سياسي فرنسي؛ تولّى منصب حاكم عام بالجزائر في أواخر عشرينات القرن الماضي، وصاحب كتاب: هل ستعيش الجزائر؟ L'Algérie vivra-t-elle ? Notes d'un ancien gouverneur general)، يعتبره البعض صديق الجزائريين، حتى لقّب بـ 'فيوليت العربي'، بالنّظر إلى أخذه قضايا الجزائريين بعين الاعتبار، ودعوته إلى إعطاء بعض الحقوق للمسلمين الجزائريين؛ لضمان استمرارية الاحتلال الفرنسي.

[2]- للاطلاع على المزيد من أسماء وإنجازات بطلات الجزائر أنظر: يحي بوعزيز: المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى، الجزائر، 2000، ص23 وما بعدها.

[3]- صدرت حديثاً دراسة باللغة الإنجليزية حول هذه المعلّمة الفرنسية ونشاطها في الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي. أنظر: Rebecca Rogers: A Frenchwoman's imperial story: Madame Luce in nineteenth-century Algeria, Stanford University press, California, 2013.

[4]- إيفوت تيران: **المواجهات الثقافية في الجزائر المُستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880**، تر. محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص.60.

[5]- هو طبيب أمراض عقلية ولد في جزر الأنتيل، وتوفيّ جزائريا عام 36 سنة، ناضل إلى جانب الجزائريين في صفوف جبهة التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية، وكان ضمن فريق تحرير جريدة المجاهد – لسان حال الثورة الجزائرية- بتونس، وله العديد من المؤلّفات التي تدين الاحتلال الفرنسي وسياسته العنصرية من بينها: 'بشرة سوداء وأقنعة بيضاء' و'العام الخامس للثورة الجزائرية'.

[6]- فرانز فانون: العام الخامس للثورة الجزائرية، تر. ذوقان قرقوط، دار الفارابي؛ ANEP، الجزائر، 2004، ص27.

[7]- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010.

[8]- في كتابها: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة؛ وقد سبق ذكره.

[9]- فضلا عن رفض المعمّرين تعليم الجزائريين 'الأهالي' ذكورا وإناثا؛ يمكن أن نشير أيضا إلى أنّ أولّ قانون فرنسي صدر بخصوص التعليم الرسمي في الجزائر والذي نصّ على إجبارية التعليم للجنسين يعود إلى سنة 1882م؛ بمعنى أنّه جاء بعد خمسة عقود من الاحتلال، وقد بقي حبرا على ورق ولم يجد طريقه إلى التنفيذ. أنظر: عبد القادر حلوش، المرجع السابق.

[10]- حول وضع المتجنّسين بالجنسية الفرنسية أنظر: كريمة بن حسين: "المتجنّسون: مواقفهم؛ أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، ع.30، مج أ، ديسمبر 2008، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة.

[11]- خديجة بقطاش: الحركة التبشرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.

أنظر أيضا: محمد الطاهر، وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، منشورات دحلب، الجزائر، 2009.

[12]- إيفون تيران: المرجع السابق، ص184.

[13]- فرانز فانون: العام الخامس للثورة الجزائرية، تر. ذوقان قرقوط، دار الفارابي، بيروت؛ anep، الجزائر، 2004، 129.

[14]- المرجع نفسه.

[15]- إيفون تيران، المرجع السابق، ص377. أنظر أيضا: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج.7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص226-227.

[16] -Voir : Mathéa Gaudry: La femme Chaouia de l'Aurès : Etude de sociologie berbère, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, (S.L), 1929. Rééditions: Chihab-Awal, Batna, 1998.

[17]- نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى: ماري بوجيجا؛ ماغالي بواسنار، هيبرتيون أوكلير.. أنظر:

Hubertine, Auclert: Les femmes arabes en Algérie, société d'éditions littéraires, paris, 1900.

René, Vigier: la femme kabyle, sa succession légitime, éditions Véga, Paris, 1932.

أنظر أيضا: سكينة مساعدي: **روائيات الاستعمار والمرأة المستعمَرة في الجزائر**، تر. نادية الأزرق بن جدة، موفم للنشر، الجزائر، 2012.

[18] -Zénaide Tsourikoff: L'enseignement des filles en Afrique du nord, Edition A. Pedone, Paris, 1935.

[19]- فرانز فانون، المرجع السابق، ص110.

[20]- المرجع نفسه، ص111.

[21]- للمزيد أنظر: سكينة مساعدي: أخوتنا المسلمات أو أسطورة تحرير المرأة الجزائرية بتحضّرها وتبشيرها...، تر. حضرية يوسفي، موفم للنشر، الجزائر، 2012.